

## سيراف وكيش ( قيس ) وعدن

( من القرن الثالث الهجرى حتى السادس )

بقلم الدكتور عطية القوضى

حرص الخلفاء العباسيون ، منذ أن أقاموا خلافتهم في بلاد العراق ، على أن يجعلوا هذه البلاد مركز الثقل السياسى والحضارى فى الدولة الاسلامية (١) . ولتحقيق ذلك كان عليهم أن يحولوا طريق تجارة العالم من البحر الأحمر والبلاد المطلة عليه إلى الخليج العربى وبلاد العراق .

ونجح العباسيون ، فى عصر خلافتهم الأول ، فى تحقيق هذه السياسة ففقد طريق البحر الأحمر نشاطه وأصبح دوره التجارى ثانوياً . وانتقل هذا النشاط تدريجياً إلى الخليج العربى وازدهرت الموانى التى تقع عليه . ومن ثم حلت موانىء هذا الخليج وهى : سيراف والبصرة والابله ثم كيش محل مينائى الفرما والقلزم فى استقبال سفن الشرق الأقصى (٢) . وتدفقت سلع ومتاجر الشرق على هذه الموانىء ، وغدت التجارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى مظهرأ من مظاهر ابهة الاسلام ، وأخذت سفن المسلمين وقوافلهم التجارية تجوب كل البحار وتصل إلى أقصى البلاد (٣) .

وأصبحت مدينة سيراف ، بسبب هذا التحول التجارى ، أهم مدن العالم التجارية فيما بين القرنين الثالث والرابع الهجرين . وصارت محطة للسفن

القادمة من الهند والصين والمتجهة إليها من ميناء كاتون ومركز جميع  
وتصرف للتجارة العالمية (٤) .

ولقد بنى الخلفاء العباسيون هذا الميناء على الجانب الشرقي من الخليج  
العربي (٥) لتسهيل وصول سفن تجار الصين الكبيرة التي لم تكن تستطيع  
الوصول إلى مدخل دجلة بسبب الرمال التي تأتي مع هذا النهر وترسب عند  
مدخله (٦) . وذكر د ياقوت ، أن السفن القادمة إلى سيراف لم تكن ترسو  
فيها ولكن بالقرب منها عند موضع يقال له د نابد ، وهو خليج ضارب بين  
جبلين على بعد ميلين من المدينة ، وهو ميناء جيد للغاية وإذا وصلت  
المراكب إليه أمّنت جميع أنواع الرياح ، (٧) .

وكانت السفن في العادة حين تترك سيراف تصل إلى مسقط ومنها إلى  
كولون وتستغرق هذه الرحلة مدة شهرين . ومن كولون تسير السفن إلى  
شبه جزيرة الملايو ومنها إلى الصين ومينائها خائفو (٨) .

ولقد حدد سليمان التاجر السيرافي مسار السفن التجارية الخارجة من  
ميناء سيراف إلى الصين بقوله (٩) : « إن أكثر السفن الصينية تحمل من  
سيراف وأن المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرها إلى سيراف فيبعي في  
السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلة الماء  
في مواضع منه . والمسافة بين البصرة وسيراف مائة وعشرون فرسخاً (١٠) ،  
فإذا عبي المتاع بسيراف استقدموا منها الماء وخطفوا (١١) إلى موضع  
يقال له مسقط وهو آخر عمل عمان والمسافة من سيراف إليه نحو مائتي  
فرسخ . وفي شرقي هذا البحر من البلاد فيما بين سيراف ومسقط سيف  
بنى الصفاق وجزيرة ابن كاوان ، وفي هذا البحر جبال عمان وفيها الموضع  
الذي يسمى الدردور وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ولا تسلكه  
السفن الصينية . وإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له صحار عمان

ومنه تحطفت المراكب إلى بلاد الهند وتقصداً إلى كولم على المسافة من مسقط إلى كولم على شهر على اعتدال الريح إلى بحر هر كند ، .

ولقد ذكر المؤرخ الجغرافي المسعودي أن سفن سيراف كانت تلتقي مع سفن عمان عند ميناء كله Kolah على الشاطئ الغربي من شبه جزيرة الملايو حيث تلتقي هناك بسفن الصين . وقد كانت بخلاف ذلك قديماً إذ كانت تصل إلى الصين كما كانت مراكب الصين تأتي بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والأبله والبصرة (١٢) .

وكانت سفن سيراف كبيرة الحجم وتدهن عادة باللون الأبيض (١٣) ، وكانت تتجنب الإبحار في البحر الأحمر بسبب كبر حجمها وخطورة الملاحة في هذا البحر . وكانت تسكن في الإبحار فيه إلى جدة التي كانت تفرغ فيها حمولتها وترسل منها إلى مصر (١٤) في مراكب البحر الأحمر (جلاب القلزم) (١٥) .

ولقد أفادت سيراف من التجارة فائدة كبرى وأصبحت كما يقول عنها الاصطخري ، الفضة العظيمة لفارس وأغنى بلادها ، (١٦) ، وذلك بسبب المكوس التي كانت تحصلها من سفن التجار الواردة إليها والصادرة منها على البضائع العالية القيمة التي كانت تحملها . ويضيف الاصطخري عن هذه البضائع قوله : د ... وكان يحمل من سيراف ما يقع إليها من أمتعة البحر من العود والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والابنوس والفلفل والصندل وسائر الطيب والأدوية والتوابل التي يكثر تقصيصها إلى جميع فارس والدنيا كلها وسيراف فرصة لهذه المواضع ، (١٧) .

ولقد انعكس غنى مدينة سيراف على مساكنها فبدت في غاية البهاء بسبب مغارة أهلها في الإنفاق على عمارتها . فكانت مبنية من خشب الساج المستورد من زنبار ، وكانت تتكون من عدة طوابق وتصل إليها المياه

من بناييع منحدره من جبل الجمام الذى تقع عند سفحه (١٨) . وأمدت  
مساكن المدينة على طول الساحل متشابكة مع بعضها كقعد متصل . وكان  
الرجل من أهلها ينفق على عمارة داره زيادة على ثلاثين ألف دينار (١٩) .

وذكر الاصطخرى أنه برغم جمال مباني سيراف فإنه ليس فى هذه  
المدينة من جميل سوى الأبنية (٢٠) . ولم يكن بها زرع ولا ضرع ولم تحط  
بها بسائين أو أشجار أو نخيل . ولذلك فأهلها يستوردون خضرهم وفاكهتهم  
وحاجياتهم المختلفة من خارج المدينة (٢١) ، من قلعة السامران الواقعة على  
جبل الجمام (٢٢) . وأضاف الاصطخرى أن مناخ هذه المدينة حار طول العام  
وشديد الحرارة فى فصل الصيف وذلك لاحتضان جبل الجمام لها (٢٣) .

وكانت التجارة هى كل ثروة أهل سيراف . فلقد اتقن أهل سيراف هذه  
الحرفة وعملوا فى تجارة الشرق سنين طويلة حتى صاروا الغالبين على سواحل  
كل الخليج وكل مدنه (٢٤) . وكان أهل سيراف يغيبون فى تجارة الشرق  
أحياناً سنوات عديدة يقضونها خارج سيراف ويعودون إلى بلادهم بالأموال  
الكثيرة ، لذلك كونوا من وراء هذه التجارة ثروات طائلة (٢٥) . وأورد  
الاصطخرى أن من أهل سيراف من أحب ركوب البحر حتى أنه قضى به  
كل عمره . ولقد بلغه أن رجلاً من سيراف ألف البحر حتى ذكر أنه لم يخرج  
من السفينة نحواً من أربعين سنة وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه لقضاء  
حوائجه . وكان فى كل مدينة يتحول من سفينة إلى أخرى إذا انكسرت أو  
تشققت فاحتجج إلى إصلاحها (٢٦) . وتظهر ثروات تجار سيراف من  
الأرقام التى ذكرها المؤرخون . فلقد ذكر أن تاجراً واحداً من تجارها  
أحضر فى مرة إلى شركائه من مدينة خانقو بالصين بضاعة قيمتها نصف  
مليون دينار (٢٧) . وذكر أيضاً أن ثروة أحد تجار سيراف بلغت أربعة  
ملايين دينار (٢٨) . كما أورد الاصطخرى أنه بلغه أن من أهل سيراف من  
يجوز ماله على ستين مليون درهم لم يكتسبها إلا من تجارة البحر (٢٩) .

ورغم غنى أهل سيراف وعظم ثرواتهم فلقد كانوا يتميزون بالبساطة في ملابسهم حتى أنك لا تستطيع أن تميز السيد عن أجيره لأنه لم يكن يتميز في لباسه عنه (٣٠) . كذلك اتصف أهل سيراف بضخالة تفكيرهم رغم احترافهم التجارة (٣١) . وفي الوقت ذاته اتصفوا بتدينهم الشديد وعدم تعصبهم الديني وتسامحهم مع سكان بلدهم من أهل الملل المختلفة (٣٢) . وكان يسكن المدينة بعض النصارى وبعض تجار اليهود . فلقد ذكر الرحالة بنيامين التيطلي الذي زار بلاد الشرق الإسلامي في القرن السادس الهجري (١٢م) أنه كان يعيش بسيراف خمسمائة يهودى كانوا يعملون بالتجارة (٣٣) . كذلك أورد أن عامل سيراف في أوائل القرن الرابع الهجري كان يهودياً يدعى «روزباه» (٣٤) .

وأورد المسعودى أنه سافر من الخليج العربى مع تجار سيراف مرات عديدة وأشاد بمهارة البحارة السيرافيين وتحديدهم للأخطار التى تعترض الملاحة فى أعلى البحار . ومن هؤلاء النواخذة الذين ركب معهم : محمد ابن الريدوم السيرافى وجوهر بن أحمد المعروف بابن نسوة الذى غرق بمركبه فى البحر . كذلك ذكر أن، ركب مياه الخليج لآخر مرة سنة ٣٠٤ هـ من جزيرة قنبلو إلى مدينة عمان على مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم ابن جعفر السيرافى (٣٥) . وأضاف المسعودى بأنه كان صديقاً لأبى يزيد السيرافى (٣٦) ، الذى يعتبر هو وأستاذه سليمان التاجر السيرافى أشهر الملاحين المسلمين فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (٣٧) . ويستمد أبو يزيد شهرته من إتمامه لكتاب صلة الصين والهند الذى ألفه سليمان التاجر (٣٨) . ولقد عاش سليمان فى أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وقام برحلات عديدة إلى الهند والصين وكانت نقطة انطلاقه مدينة سيراف (٣٩) . وهو يعتبر من أشهر رجالات سيراف ويستمد شهرته من كتاب رحلته الذى كتبه سنة ٢٢٧ هـ ويعرف بكتاب صلة الصين والهند (٤٠) . ولقد ملك سليمان فى

رحلاته طريق التجارة إلى الهند الذي كان متبعاً في العصر العباسي الأول ،  
وكان الملاحون يبدأون فيه رحلاتهم إلى بلاد الهند والصين إما من بغداد  
والبصرة أو من سيراف حتى ساحل ملبار وجاوة ثم الصين<sup>(٤١)</sup> .

ولقد نبغ أهالي سيراف في علم البحار والملاحة وتوارث الأبناء عن  
الآباء أسرار هذه المهنة حتى أصبحت هنالك عائلات متخصصة في هذا الشأن  
صار لها تاريخ طويل في هذا المضمار . فنجد في كتاب «عجائب الهند»<sup>(٤٢)</sup>  
يرد ذكر اسم عائلة سعدان التي اشتهر فيها بهذا الفن الأخوان محمد وعلي  
ثم أبناؤهما من بعدهما . كذلك أورد البحار الشهير «ابن ماجد»<sup>(٤٣)</sup> أسماء  
ثلاثة شيوخ من سيراف كان لهم ولاسرتهم من بعدهم نبوغ كبير في فن علم  
البحار والملاحة . وهؤلاء الشيوخ الثلاثة هم : الحى بن كهلان (منتصف القرن  
الثالث الهجرى) ، وسهل بن أبان (النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى)  
ومحمد بن سعدان (النصف الأول من القرن الرابع الهجرى)<sup>(٤٤)</sup> .

ونبغ من أهل سيراف عدد من الكتاب وأصحاب الوظائف الكبرى  
في الدولة ومنهم «ماهان بن بهرام» الذي كتب لعلى بن الحسين بن بشر  
ومحمد بن واصل وجمع له الدواوين واستقل بها . كذلك أخوه كامل بن بهرام  
ويكنى بأبي الليث وكان رئيس ديوان الرسائل . ومنهم الحسن بن عبد الله  
ويكنى بأبي سعيد<sup>(٤٥)</sup> . ومن رجال النحو والفقه والحديث نبغ أبو سعيد  
الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي<sup>(٤٦)</sup> ، الذي كان يقوم بالإفتاء في  
جامع الرصافة في بغداد مدة أربعين عاماً . وكانت تصله الرسائل من الحكام  
والوزراء من مختلف بلاد العالم الإسلامي<sup>(٤٧)</sup> .

وظلت سيراف مزدهرة حتى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر  
الميلادى) وبدأت تفقد مكانتها التجارية العالمية حين تحولات السفن التجارية  
عنها إلى ميناء جزيرة كيش (قدس) ، فافنقرت المدينة وخلت من معظم

سكانها وأصابها فقر بعد غنى وذل بعد عز . ويرجع تدهور سيراف ونهاية أمرها إلى عوامل ثلاث :

أولها : تدمير الزلازل لها ، وثانيها نهاية نفوذ البويهيين في العراق ، وثالثها : ازدهار ميناء جزيرة كيش وتحويل السفن إليه .

أما عن الزلازل ، فلقد تعرضت المدينة في سنة ٣٦٦ أو ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م لموجة زلازل عنيفة استمرت لمدة سبعة أيام متصلة دمرت الميناء تماماً (٤٨) ، وبعد هذه الحادثة بوقت قليل انتهى نفوذ حكام الفرس البويهيين في بغداد ، وكانوا يرعون ميناء سيراف ويعملون على نشاطه وازدهاره فلم يجد الميناء ، بفقدان مكانتهم ، من يعمل على إعادة عمرانه (٤٩) . أما عن العامل الثالث فهو ما سفتعرض له بشيء من التفصيل .

ولقد أشار ياقوت الحموي إلى التدمير الذي أصاب سيراف ، وذكر أنه حين زارها ( بداية القرن السابع الهجري ) لم يشاهد شيئاً قائماً من مبانيها سوى جامعها . وأنه وجدها خاوية من السكان إلا من قلة فقيرة ما أوجب لهم المقام بها إلا حب الوطن (٥٠) . ويقول صاحب كتاب « فرس نامه » (٥١) أن نهاية سيراف التامة وقهر مينائها كان في عهد ركن الدولة خمارنكين أمير جزيرة كيش ( قيس ) الذي في عهده تحولات التجارة تماماً إلى جزييرته ، والذي اتخذ ميناء سيراف قاعدة لبناء سفنه الحربية (٥٢) . كذلك أورد نفس القول المؤرخ الفارسي حمد الله المستوفي صاحب كتاب « نزهة القلوب » (٥٣) .

\* \* \*

هذا عن سيراف ، أما كيش فهي جزيرة صغيرة في الخليج العربي تقع بالقرب من حدود إيران على خط ٥٤° شرقاً ، ٣٠° شمالاً ، ويطلق عليها

العرب اسم قيس (٥٤) . ولقد أدى الموقع الممتاز لهذه الجزيرة في الخليج إلى ازدياد أهميتها التجارية وخاصة حين تدهور أمر سيراف وجعلها تحتل مكانتها كمحطة كبرى لتجارة الشرق (٥٥) . ويقول ياقوت أنه منذ أن عمر ابن عميرة جزيرة قيس صارت فرضة الهند وإليها منقلب التجار (٥٦) . ويضيف ياقوت بأنه شاهد هذه الجزيرة مراراً وأنها مليحة للنظر ذات بساطين ونخيل وعمارات جيدة (٥٧) . وأن بها مغاص على اللؤلؤ وفي جزائر كثيرة حولها وكلها ملك صاحب كيش . ويشرب أهلها من آبار فيها والخواص الناس صهاريج كثيرة لمياه المطر وفيها أسواق وخيرات (٥٨) . والطقس في كيش شديد الحرارة في فصل الصيف ، ورغم ذلك فلقد ظلت من أعمار بلاد فارس وأكثرها ازدهاراً بالسكان حتى القرن السادس الهجري (٥٩) . فلقد كان يسكنها حوالي ١٠٠٠ نسمة وهم من أصل عربي (٦٠) . قال ياقوت أنه شاهد فيها جماعة من أهل الأدب والفقه والفضل وأنه كان بها رجل صنف كتاباً جليلاً فيما اتفق لفظه وافترق معناه ويقع في مجلدين ضخمين (٦١) . وقد نسب المحدثون إليها اسماعيل بن مسلم العبدى الكيشي قاضياً الثقة والذي روى عنه يحيى بن سعيد ووكيع وعبد الرحمن بن المهدي (٦٢) .

أما عن البيت الحاكم الكيشي فيذكر ياقوت أنها كانت تتبع صاحب عمان ، وأن صاحب عمان يملك بحرهما وله مسكن فيها وله ثلثا دخل البحرين . وأن للملكها هبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه ، وهو يتشبه بملوك الديلم في شكله ولبسه وعنده الخيول العرب الكثرية والنعمة الظاهرة (٦٣) . وأصل البيت الحاكم الكيشي من عرب بني قيس من جنوب الجزيرة العربية ، وكانوا يقتلدون الحكام البويهيين الفرس ( الديالمة ) في ملابسهم ومظاهر ألباسهم (٦٤) .

وظلت كيش مزدهرة ومحطة تجارة الشرق العالمية في النصف الثاني من



القرن الرابع وطول القرن الخامس الهجرى . وانعكست مظاهر الثراء على  
حكامها وعلى أهلها وعلى مظاهر العمران بالجزيرة فى ذلك الوقت<sup>(٦٥)</sup> .  
وكان حكام كيش يعاملون التجار فى بادىء الأمر الواردين إلى جزيرتهم  
معاملة طيبة وكانوا لا يتمسفون معهم فى جمع المكوس . إلا أنهم مع بداية  
القرن السادس الهجرى تغيرت معاملتهم للتجار المسافرين فى بحر عمان  
فقسموا عليهم وغالوا فى تقدير المكوس المفروضة على بضائعهم وزادوها  
زيادة كبيرة<sup>(٦٦)</sup> . ولقد أدى ذلك الأمر إلى أن ينحول كثير من تجار  
الشرق عن ميناء كيش إلى ميناء عدن وتفقد الجزيرة بذلك أهم  
موارد ثروتها .

وكان ميناء عدن قد بدأ فى استعادة مكانته التجارية السابقة<sup>(٦٧)</sup> ، وأخذ  
يسرق الأضواء عن موانئ الخليج العربى ، وجاء ازدهار عدن وبالأعلى ميناء  
كيش الذى أخذ فى فقدان مكانته التجارية العالمية بسبب تحول سفن تجار  
الشرق إلى عدن<sup>(٦٨)</sup> . ولقد زار كيش الرحالة اليهودى بنيامين التطيلي فى  
منتصف القرن السادس الهجرى ، وهو الوقت الذى بدأت كيش فيه خريف  
عمرها ، وذكر فضوب مواردها وخلو موانئها<sup>(٦٩)</sup> .

ولم يتحمل حاكم كيش أن يحدث لجزيرته ما حدث لميناء سيراف وأن  
يسمح لميناء عدن أن يعمره من مصدر ثروته خاصة وأن سعر البهار فى ذلك  
الوقت قد زاد بمقدار الثلث<sup>(٧٠)</sup> . لذلك قرر أن يوقف هذا الأمر بالقوة  
وأن يستخدم أسطوله فى تدمير عدن وإجبار سفن تجار الشرق على العودة  
قسراً إلى ميناء بلاده . ولقد قام حاكم كيش بالفعل بتنفيذ مخططه وهاجم  
بأسطوله مدينة عدن .

وكان يحكم عدن فى ذلك الوقت ( النصف الأول من القرن السادس  
الهجرى ) بنو زريع الاسماعيليون والموالون للخلفاء الفاطميين<sup>(٧١)</sup> ، نيابة

عن ولاية اليمن الصليحيين<sup>(٧٢)</sup>. وكانوا يرسلون ما يحصلونه من مكوس على سفن  
التجار إلى السيدة الحرة الصليحية<sup>(٧٣)</sup>. وكان يتقاسم حكم المدينة بيتان من هذه  
الأسرة وهما بيتا أبناء العم العباس ومسعود . ولقد حكم من فرع العباس  
أبناؤه ذريع (٤٨٠ - ٥٠٤) ثم أبو سعود ، ثم سبأ (ولاه الخليفة الفاطمي  
الحافظ سنة ٥٢٥ هـ) . وحكم من فرع مسعود أبناؤه أبو الغارات ثم محمد ثم  
علي . وظل البيتان الزريعيان يتقاسمان حكم عدن مناصفة حتى سنة ٥٣٣ هـ .  
ففي هذه السنة قام سبأ بعزل ابن عمه علي وانفرد بحكم عدن<sup>(٧٤)</sup> . ورغم أن  
سبأ توفي في نفس العام<sup>(٧٥)</sup> الذي استبد فيه بحكم عدن إلا أن أبناءه من بعده  
واصلوا ما فعله أبائهم وظلوا في حكم عدن دون مشاركة أبناء عمومتهم<sup>(٧٦)</sup> .

وحسب رواية ابن المجاور (ت ٦٩٠/١٢٩١ م) بأن الهجوم على عدن  
وقع سنة ٥٣٠ هـ/١١٣٥ م أي أنه وقع في الفترة التي كان يحكم فيها عدن أبناء  
العم سبأ بن أبي سعود وعلي بن أبي الغارات مناصفة (٥٢٥ - ٥٣٣ هـ /  
١١٣١ - ١١٣٨ م) . ولقد كان من نصيب سبأ قلعة الحضرة التي تتحكم في  
مدخل البحر والميناء بينما كان ابن عمه يتحكم في مدخل المدينة من ناحية البر .

ورغم عدم معاصرة ابن المجاور لهذا الهجوم إلا أنه لدينا ما يؤكد صحة  
هذه الواقعة وصحة التاريخ الذي ذكر أنها حدثت فيه . فهناك وثيقتان من  
وثائق الجنيزة لشاهدي عيان شاهدا المعركة التي دارت في ميناء عدن أثناء  
مرورهما به تقريباً في نفس التاريخ الذي ذكره المؤرخ وتحدثنا عنها في  
خطاباتها . والشاهدان هم تاجران من تجار الكارم كانا في طريق عودتهما  
من رحلتهم بالهند مارين بعدن . والوثيقتان عبارة عن خطابين أرسل الأول  
شخص يدعى د باما ، إلى سيده د ياجر ، التاجر الذي كان بالهند . ولقد  
أرسل د باما ، الخطاب من عدن أثناء مروره بها . والخطاب الثاني مرسل من  
عدن أرسله تاجر عائد من رحلته بالهند إلى تاجر آخر شريك له بالقاهرة  
يدعى أبو سعيد الديماطي<sup>(٧٧)</sup> . والخطاب الثاني يؤكد صحة التاريخ الذي

ذكره ابن المجاور عن الحادثة ، ذلك لأن اسم الشخص المرسل إليه الخطاب هو الاسم العربي للتاجر اليهودي « حلفون بن نيشانيال » وهو من أكبر تجار الهند الكارمية في العهد الفاطمي آنذاك<sup>(٧٨)</sup> . ووجدت رسائل كثيرة باسم هذا التاجر في وثائق الجنيزة ، كذلك ورد في هذه الوثائق أن حلفون نفسه كان في عدن في ربيع ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م وأنه أرسل في سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٦ م خطابين إلى المغرب وإلى أسبانيا وصلاً إلى هذه البلاد وهو في طريق عودته من عدن . وأيضاً أرسل حلفون من ميناء عيذاب خطاباً إلى أخيه رئيس القضاة اليهود في القاهرة ذكر فيه ضمن ما ذكر أسماء التاجرين اللذين أرسل خطابات لهما . كل هذا يجعلنا نصل إلى أن خطابنا ، الذي به واقعة الهجوم على عدن ، أرسل في سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م ، وهذا يتفق تماماً مع ما ذكرته المصادر الإسلامية عن تلك الواقعة<sup>(٧٩)</sup> .

وكان هذا الهجوم الذي وقع على عدن يعد من أكبر الأخطار التي تعرضت لها المدينة والتجارة والملاحة في جنوب البحر الأحمر .

وعن أحداث الهجوم ذكر ابن المجاور أن « ولد العميد ، حاكم كيش قام بالهجوم على عدن وقت أن كان يحكمها سبأ وعلى بن أبي الغارات من بني زريع وذلك بقصد تدميرها والقضاء على تجارتها وإعادة طريق التجارة إلى ما كانت عليه ، أي إلى ميناء جزيرته كيش<sup>(٨٠)</sup> . وأن حاكم كيش أرسل إلى ميناء عدن أسطولاً مكوناً من بعض سفن لم تكن معروفة في عدن وهي عبارة عن اثنين من البرام الكبار ( سفن كبيرة ) وثلاثة سفارات ( سفن صغيرة تصطبب السفن الكبرى ) وعشرة جاشوجيات ( سفن صغيرة خفيفة ) وعدد من الدوانج ( اسم شائع لسفن صغيرة خفيفة تسير في المحيط الهندي )<sup>(٨١)</sup> . ورسست السفن المهاجمة تحت جبل صرح مرمى السفن القادمة إلى عدن . وأرسل قائد الأسطول المهاجم رسائل إلى قائد القلعين بطلب التسليم واستعمل قائد قلعة الخضر ( سبأ بن سعود ) الحيلة والخداع مع العدو إذ أسرع بإرسال طعاماً وشراباً لهم وأرسل لهم رسالة تظاهر فيها

بالإستسلام وقال فيها : د أنا عبدكم والبلد بلكم ولكم أن تختاروا ما ترون حاكماً عليها ، ، ولما وصل هذا الرد لرجال كيش فرحوا به واحتفلوا بالطعام والشراب المرسل لهم . ولقد خاف قائد الأسطول الكيشي من أن يكون وراء الأمر خديعة فحذر رجاله من عدم التماذى فى التفاؤل . لكن تحذيره كان دون جدوى فلقد تماذى الرجال فى شربهم حتى الثمالة . وصدق حدس هذا القائد فلقد استنجد قائد الخصرة بأسطول البحار د رامشت ، (٨٢) الذى كان راسياً بسفنه بالقرب من عدن . فوصل بسفنه والقوم سكارى فهجم برجاله عليهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً وقطعوا رؤوسهم . وهرب من نجى من الموت إلى سفنهم منهزمين ، وازاح بذلك الخطر عن عدن . وأطلق اسم الجاجم ، منذ ذلك الوقت على هذا المكان الذى دارت فيه المعركة بسبب كثرة من قتل فيه (٨٣) .

هذه رواية ابن المجاور ، أما رواية وثيقى الجنيزة فنحن نورد هـما بنصهما لما فى هـما من فائدة . وجاء فى الوثيقة الأولى الآتى (٨٤) :

د ... وكان هذه السنة أول الوقت جرز ولد العميد صاحب كيش إلى عدن طلب قطعة من عدن ولما لم يعطوه أخذ الجهاز . وكان جهازه برمتين كبار و٣ سفارات وعشرة جاشجيات وفى الجميع تقدير ٧٠٠ رجل . وقعدوا فى مكلا عدن ينتظروا المراكب ولم يدخلوا البلد فكان فى البلد خوف كثير منهم فلم ينصرفهم الله ولم يوفقهم وقتل منهم خلق كثير وزلخت مراكبهم وماتوا عطش وجوع . وكان أول جهاز وصل البلد مركبين الناخذ راامشت فقاتلهم ولم ينصرفهم الله . فلما دخلوا المركبين إلى البندر أطلعوا فىهم الديوان الكثير فانطردوا من البندر وصاروا يدوروا فى البحر ولم ينصرفهم الله ومضوا على أقبح صورة مقتولين خامرين ، .

وجاء فى الوثيقة الثانية ما نصه (٨٥) :

د ... وأما أخبارنا وما طرأ علينا بعد سفركم فهو شيء يطول شرحه  
 ولو أجريت عشرة ورقات حتى أصف به بعض ما طرأ علينا لا يكفي ذلك  
 غير أني أختصر بما أكتبه وجميع أصحابنا المسافرين يعرفونكم بما كنتم سمعوا  
 ورأوا [وا إن] ما كننا نقاضى العدو شهرى زمان هم في البحر ونحن في البر ولم يبق  
 في البلد كبير ولا صغير إلا في الحصون وما تحت الحصون إلا بيوت فارغة  
 ومقاسم العدو ينظرونا وننظره وهم لا يجسروا يخرجوا إلينا وأهل البلد  
 ما معهم جهاز يدخلوا إليهم به إلا كان يخاف من صاحبه . واجتمع في البلد  
 تقدير ألف رجل ولو كان قبل معهم في البلد ٥٠٠ رجل لما هربوا الناس من  
 بيوتهم إلا وصلوا والعدو في المكلا والناس قد هربوا من بيوتهم حتى ظفروا  
 الله بهم ونزع البحر وهم في صيرة مع الصباح واقتلوا وأهل البلد وقتل مع  
 ديارهم جماعة وهزت روسهم ونهب ما كان قد نزل لهم بصيرة لأنهم كانوا قد  
 ملكوا ص[ير]ه ونزلوا بها قاطنين ليل ونهار حتى طرأ عليهم [الذي] طرأ  
 وصاروا في البحر والناس في البر حتى وصلوا مركبي رامشت وخرجوا لهم  
 يريدوا يأخذوهم وكان الريح طيب فتشتتوا في البحر يمين ويسار ودخلا  
 المركبين بالسلامة ودخل إليهم العسكر ولم عاد يبق لهم حيلة لافي الم[لك] [لا]  
 ولا في البلد فرجعوا راحوا خلف الجبل إلى أن طاب لهم الريح وسافروا  
 وشرح خبرهم بطول ولم يمضوا إلا منكسرين مقتولين خابرين قاله تعالى  
 يريد يكفيننا شرهم ولا يريد يرينا وجوههم ... .

## مراجع البحث

— Wiet : L'Egypte Arabe, Paris 1937, T. IV, pp. 166- (١)  
167.

— Heyd : Histoire du Commerce, Leipzig 1923, T.I, (٢)  
pp. 26—27.

(٣) آدم متر : الحضارة الإسلامية ، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده ، القاهرة  
١٩٤١ ، ج ١ ، ص ٣١٢ .

— Lamb, A : Avisit to Siraf, Journal of the Malaysian (٤)  
Branch, Royal Asiatic Society, v. 37, 1964, Part I,  
p. 2.

(٥) ذكر أنها بنيت في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور .

(Blanch Tapier : Les Voyageurs Arabes au Moyen Age, Paris  
1937, p. 37).

(٦) أورد ياقوت الحموي ( معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ ، ج ٥ ، ص ١٩٣ ) أن  
الفرس قد ذكروا في كتابهم المسمى بالابستاق وهو عندهم بمثابة التوراة والإنجيل عند  
اليهود والنصارى أن كيكاسوس لما حدث نفسه بصعود السماء صعد فلما غاب عن عيون الناس  
أمر الله الريح بخذله فسقط بسيراف فقال اسقوني ماء أو لبناً فسقوه ذلك بذلك المكان  
فسمى بذلك لأن شير هو اللبن وآب هو الماء ثم عريت فقلبت الشين إلى السين والباء إلى الفاء  
فقل بسيراف .

(٧) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .

— تقع خرائب سيراف الآن على مسافة ميل من غربي قرية بندر طاهري ومسافة  
٢٠٠ ميل جنوب شرق ميناء بوشير الفارسي الشهير وما زالت هذه الخرائب قائمة حتى  
الآن ومن السهل الوصول إليها بالسيارة من بوشير ( Lamb : Op. cit, p. 4.)

— Moqbul Ahmed ; Commerical relations of India with (٨)  
the Arab world, Islamic Culture, v. 38, 1964, p. 148.

— Reinaud : Relations des Voyages, Paris 1945, II, (٩)  
pp. 14—18.

(١٠) ذكر ياقوت أن بين سيراف والبصرة إذا طاب الهواء سبعة أيام ( معجم البلدان  
ج ٥ ، ص ١٩٣ ) .

- (١١) خطفوا لفظة يستعملها أهل البحر بمعنى يلقعون إلى موضع ( أبو يزيد السيرافي : أخبار الصين والهند ، نشر رينو ، ج٢ ، ص ١٥ ) .
- (١٢) صروج الذهب ، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٣٨ ، ج ١ ، ص ١١٧ .

- Navdi : Industry and Commerce under the Abbassids, (١٣)  
Journal of the Pakistan Historical Society, v. I, Part III,  
Karachi 1953, P. 259.
- Wiet : Les Marchands d'épice, ( CHE, Le Caire (١٤)  
1955, p 82).

(١٥) الجلاب ومفردها جلبية ، وهى سفن صغيرة كان يستخدمها رجال البجة فى نقل الحجاج من ميناء جدة عبر البحر الأحمر . ولقد وصف لنا الرحالة ابن جبير طريقة عمل هذه الجلاب . ولمعرفة هذه الطريقة انظر : رحلة ابن جبير ( تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٦٨ ) .

(١٦) المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر الحينى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣١ .

(١٧) الأصبخري : المسالك والممالك ، ص ٩٢ .

(١٨) نفس المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(١٩) نفس المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٢٠) المسالك والممالك ، ص ٣١ .

(٢١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٩٣ ( أورد ياقوت أنه زار سيراف وأنه شاهد عمارتها الحسنة وجامعها الجميل الذى أقيمت أعمدته من خشب الساج المستورد ) .

— Le Strange ; The Lands of the Eastern Caliphate, (٢٢)  
Cambridge 1930, p. 258.

(٢٣) المسالك والممالك ، ص ٨٢ .

(٢٤) الأصبخري : المسالك والممالك ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

— The Encyclopadia of Islam, Leyden 1934 v. IV, (٢٥)  
p. 444.

(٢٦) المسالك والممالك ، ص ٨٣ .

— Heyd : Histoire du Commerce, I, p. 165. (٢٧)

(٢٨) الأصبخري : المسالك والممالك ، ص ٨٣ .

(٢٩) نفس المصدر السابق ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٣٠) نفس المصدر السابق ، ص ٨٤ .

— The Encyclopadia of Islam, v. IV, p. 444. (٣١)

- (٣٢) الأصطخري : المسالك ، ص ٨٥ .
- (٣٣) ذكر الرحالة اليهودي التطيلي أن هؤلاء اليهود ارتحلوا إلى جزيرة كيش بعد أن تدهورت أحوال سمراف في أواخر القرن الرابع الهجري .  
(Lamb ; Avisit to Sitaf, p. 9).
- (٣٤) — Fischel : Jews in the economic and political life of Medieval Islam, London 1937, pp. 31-33.
- (٣٥) مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٨٩ .
- (٣٦) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة .
- (٣٧) — Reinaud : Op. cit., I, p 53.
- (٣٨) — Heyd : Op. cit., I, pp. 28-29.
- (٣٩) — Ibid, p. 29.
- (٤٠) يقع هذا الكتاب في جزئين وقام بنشره رينو Reinaud بعنوان :  
"Relations des Voyages, Paris 1848".
- (٤١) — Reinaud . Op. cit. I, pp, 14-15.
- (٤٢) الخاكي : عجائب الهند والصين ، مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٢٨١ ورقة ٥ أ .
- (٤٣) يعتبر الملاح ابن ماجد من أشهر الملاحين المسلمين ، ولقد عاش هذا الملاح في القرن التاسع الهجري وقام بتأليف عدة كتب في علم البحار وفنون الملاحة من أشهرها كتابه : « الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » .  
ولقد تحدث في هذا الكتاب عن الملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر منذ القرن الثالث الهجري وحتى عهده .
- (Sauvaget, J ; Instructions Nautiques Arabes pour les mers de l'Inde, [ Journal Asiatique, 1948, t. 362, pp. 16-17].
- (٤٤) — Sauvaget : Op. cir., p. 18.
- (٤٥) الأصطخري : المسالك والممالك ، ص ٨٨ ، ٨٩ .
- (٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .
- (٤٧) أرسل إليه الأمير الساماني نوح بن نصر خطاباً فيه ٤٠٠ مسألة في الدين وخاطبه بالإمام . كذلك خاطبه البويهيون بلقب شيخ الاسلام ، توفي في بغداد سنة ٣٦٨ هـ ودفن في جبانة الحيزران .
- (Encyclopeadia of Islam, v. IV; Leyden 1934; pp.444).
- (٤٨) — Encyclopeadia of Islam, v. IV, p. 444.
- (٤٩) — Lamb ; Op. cit., p. 9,
- (٥٠) معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .
- (٥١) هو مؤرخ فارسي ، كتب كتابه عن تاريخ الفرس باللغة الفارسية ويرجم تاريخ الكتاب إلى بداية القرن السادس الهجري (١٢ م) .
- (Le Strange : Op. cit., p. 14).



— Le Strange : Op. cit., p. 259.

(٥٢)

(٥٣) في الوقت الذي كتب فيه الرحالة ابن بطوطة كفايه بالعربية عن رحلته في بلاد العالم . كتب الرحالة الفارسي حمد الله المستوفي المعاصر له بالفارسية كتابه «نزهة القلوب» وهو يتحدث فيه عن أحوال مملكة فارس وقت استقرار حكم المغول فيها في عهد ملكهم لمبليخان . وهناك كتاب آخر بالفارسية بعنوان « تاريخي جوزيداه » ( التاريخ المختار ) الذي بالإضافة لفائدته عن عهد المغول فهو يعطينا جوانب جغرافية غاية في الأهمية بالنسبة لبلاد فارس قبل حكم المغول لها . (Le Strange . Op. cit., p. 16)

— Le Strange ; Op. cit., p. 257.

(٥٤)

— Lamb ; Op. cit., p. 9.

(٥٥)

(٥٦) معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٩٣ .

(٥٧) نفس المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٥٨) نفس المصدر والجزء ، ص ١٩٧ .

— Le Strange ; Op. cit., 257.

(٥٩)

— The Encyclopaedia of Islam, v. II. p. 1041

(٦٠)

(٦١) معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ١٩٧ .

(٦٢) ياقوت : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٣٠٦ .

(٦٣) معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٦٤) ذكر القلقشندي أن بني قيس بطن من آل عامر بن صعصعة من العدنانية منازلهم بالبحرين ( نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق إبراهيم الايباري ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤٠٣ ) .

— Le Strange : Op. cit., p. 257.

(٦٥)

— Goitein : Two Eyewitness Reportes of an expidition (٦٦) of the King of kish (Qais) against Aden, [ Bulletin of the School of Oriental and African studies, v. XVI, 1954, Part 11, p. 248 §.

(٦٧) عادت للبحر الأحمر أهميته التجارية الأولى في القرن الرابع الهجري والقرن الخامس وذلك بسبب فعرض التجارة للخطر في الخليج العربي بسبب قيام ثورة الزنج وثورة القرامطة اللتين نشبتا في العراق وفي منطقة البحرين . كذلك بسبب تدهور أحوال الخلافة العباسية السياسية والاقتصادية بسبب سيطرة القواد الأتراك على السلطة فيها ولثائرة الاضطرابات في الدولة وشل نشاطها التجاري . هذا وقد ساءت في ذات الوقت معاملة السلطات الصيفية للتجار العرب ، الأمر الذي أدى إلى توقف هؤلاء التجار عن ارتياد موانئ الصين وقصر نشاطهم التجاري على الهند والبحر الأحمر . وقد أدى ذلك إلى عودة النشاط إلى ميناء عدن .

١) انظر : عطية القوضى : تجارة مضر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية .

رسالة دكتوراه ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٥٠ - ٥٥ .

— Goitein : Two Eyewitness, p 248. (٦٨)

— Ibid, p. 347. (٦٩)

— Ibid, d. 248. (٧٠)

— Loeftgren : Arabische Texte zur kenntnis Der (٧١)  
stadt Aden, Leiden 1950, I, p, 46.

(٧٢) كانت عدن تتبع الولاية الصليبيون حكام اليمن المواليين للدولة الفاطمية . وكان الصليبيون يختارون لعدن ولاية يثقون فيهم وكان هؤلاء الولاية يرسلون لهم المكوس التي كانوا يحصلونها من التجارة . واستمر ولاية عدن يرسلون المكوس للصليبيين إلى أن حكمها بنو زريع نيابة عنهم سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م . وأخذ بنو زريع في إرسال المكوس التي يحصلونها من التجارة إلى السيدة الحرة الصليبية . فكانوا يرسلون لها سنوياً حوالي ١٠٠ ألف دينار . وحاول بنو زريع الاستقلال عن الصليبيين وعدم الدفع لهم لكن السيدة الحرة حاربتهم وهزمتهم وفرضت عليهم أن يدفعوا لها سنوياً ضريبة قدرها ٦٠٠ ألف دينار هي نصف خراج عدن . واستمر بنو زريع على ذلك حتى وقع الحلاف بين السيدة الحرة والخليفة الفاطمي الحافظ بسبب نشرها الدعوة في اليمن والحجاز لمنافسة الطيب . واستفاد بنو زريع من هذا النزاع اذ سرعان ما استعان بهم الخليفة الحافظ في الدعوة له والقضاء على حكمها . فأعلن بنو زريع خروجهم مرة ثانية عن الصليبيين واستقلالهم بعدن بعد أن قويت السيدة الحرة سنة ٥٣٢ هـ . وظلت عدن في حوزة بنو زريع حتى سنة ٥٦٠ هـ .

(محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٧٥ - ٩٣) .

(٧٣) لو أردنا أن نضرب مثلاً للأموال التي كان جامع المكوس في عدن يحصلها من السفن القادمة من الهند نجد أن بلال بن جرير الذي كان نائباً عن بنو زريع في حكم عدن في الفترة ما بين ٥٣٤ - ٥٤٧ هـ / ١١٣٩ - ١١٥٢ م قد خلف وراءه ثروة طائلة مما كان ينحصر من هذه المكوس .

وأورد عمارة اليمنى الذي كان صديقاً له أنه خلف عند وفاته ٦٥٠٠٠٠ دينار مليكي وأكثر من ٣٠٠ ألف دينار مصري عدا بضائع وعطور وأسلحة وأشياء نادرة من الصين وشرق أفريقيا كان العجار يهادونه بها .

(Goitein : Two Eyewitness, p. 248)

(٧٤) توفي على بن أبي الفارات سنة ٥٤٥ هـ .  
 (زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، تعريب زكي حسن وحسن أحمد محمود ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٨١) .  
 (٧٥) ظل سبأ بن أبي السعود يحكم عدن بمفرده حتى وفاته سنة ٥٣٣ هـ وكان بلال ابن جرير نائباً عنه في حكمها وكان يحصل له المكوس فيها . فلما مات عين مكانه ابنه على الأغر الذي لم تطل ولايته وتوفي سنة ٥٣٤ هـ .  
 فسكتب بلال بن جرير من عدن الى مولاه محمد المعظم بن سبأ . وكان خارج عدن يخبره بوفاته أخيه ويأمره بالمبادرة بالعودة الى عدن ويعدّه بالوقوف الى جانبه .  
 فوصل محمد المعظم عدن وحكم مكان والده حتى سنة ٥٤٨ هـ .

(Lofgren : Op. cit., II, Leiden 1950, p. 217).

— تحدثت وثائق الجنيزة عن ثراء بلال هذا لاشتغاله في تجارة الشرق . فلقد كان شريكاً لمضمون بن بندار كبير تجار عدن ووكيل التجار اليهود فيها في خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري . ولقد ذكرت وثيقة من وثائق الجنيزة أن هذين الشريكين أرسلاني سفينة أحد الصفقات الكبرى من حاصلات تجارة الشرق تقدر قيمتها بـ ١٠٠٠٠ دينار .

(Goitein : Studies in Islamic, History and Institutions, Leiden 1966, p. 359).

(٧٦) حكم بعد وفاة سبأ ابنه على الأغر المرتضى (٥٣٣ — ٥٣٤ هـ) ثم محمد المعظم (٥٣٤ — ٥٤٨ هـ) فعمران المكرم (٥٤٨ — ٥٦٠) ثم محمد بن عمران (٥٦٠ — ٥٦٩ هـ) وكان تحت وصاية الوزير ياسر بن بلال بن جرير .

( أنظر التسلسل التاريخي للأسمرة في معجم الأنساب لزامباور ، ج ١ ، ص ١٨١ ) .

— Goitein : Two Eyewitness, p. 249. (٧٧)

(٧٨) ورد في الخطاب أيضاً اسم تاجرين مغربيين كانا في ذلك الوقت قد عادا لتوهما من رحلتهم في عدن .

(Goitein : Op. cit, p, 249),

— Goitein : Op, cit, p, 250. (٧٩)

— Loeifgren : Op, cit, I, pp, 50-52 (٨٠)

— Goitein : Two Eyewitness, p. 252. (٨١)

(٨٢) كان رامشت هذا قرصانا كبيراً من قراصنة بحر القلزم ، وورد اسمه في وثائق الجنيزة بأنه البحار الكبير وقائد السفن العظيم . كان يتخذ لسفنه مقراً بالقرب من عدن لمباغنة قوافل السفن الداخلة الى الميناء .  
 انتهى هذا القائد نهاية طيبة وتوقف عن القرصنة في آخر حياته وذهب لأداء فريضة الحج وتوفي ودفن بمكة سنة ٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م .

(Goitein : Studies , p. 338).

— Loeifgren : Op. cit., I, pp. 50-52. (٨٣)

(٨٤) أورد جوايتين أن هذه الوثيقة موجودة بمكتبة جامعة كبرديج تحت الأرقام الآتية :

— University Library , Cambridge , T.S. 20-137.

( Goitein : Two Eyewitness , pp. 254-255 ).

(٨٥) هذه الوثيقة موجودة بمكتبة جامعة كبرديج تحت الأرقام الآتية :

— Univetsity Library , Cambridge , T.S.18 J 5 f. 5.

( Goitein : Op. cit., p, 255 ).